صلاح الدين الأيوبي

والمستشرق هاملتون أ. ر. كب

د. ناصر عبد الرزاق الملا جاسم
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الموصل

الاستشراق مظهر من مظاهر صلة الغرب بالشرق وهو بدوره نتاج لهذه الصلة وبقدر تنوع هذه الصلة اختلفت انماط الاستشراق وتنوعت. فاصبح لدينا استشراق ديني وآخر سياسي وثالث علمي وهكذا...

وكل نمط من هذه الأنماط هو نتاج لمؤسسات وبيئات مختلفة فكرية أو سياسية أو ثقافية، ويستهدف تنفيذ أهداف وغايات معينة، فالاستشراق الديني يعبر ولاشك عن البيئة التي رتع فيها التبشير بينما أفرزت السياسة ومؤسساتها الاستشراق السياسي، في حين كانت الأكاديمية هي التي خرّجت وتخرّج الأعمال الاستشراقية العلمية.

إلا أن نتاج كل مستشرق هو، بطبيعة الحال، حصيلة تفاعل إمكاناته الشخصية وتكوينه الفكري مع البيئة التي ينتمي إليها ويتنفس هواءها وينخرط تحت لوائها، والأهم من ذلك يستهدف مخاطبة أناسها.

وقد يسمو بعض المستشرقين ـ أحياناً ـ على الأفكار السائدة في بيئتهم ويقطعون شوطاً طويلاً ليأتوا بتفسيرات جديدة تخالف ما هو مألوف ومقرر فيصبحون عرضة لنقد زملائهم من المستشرقين أو المفكرين الغربيين. ومن المثير للأسى أن يبقى باحثنا أو ناقدنا العربي بعيدا عن الحوارات الفكرية التي تدور بين المستشرقين، وأن لا يقدر طبيعة الهوة التي يتخطاها المستشرق عن الحوارات الفكرية التي تدور بين المستشرقين، وأن لا يقدر طبيعة الهوة

التـــي يتخطاها بالمنظار ذاته الذي ننظر نحن به، ويسفه أية قيمة للنظرةِ الخارجية. كما أن القسم الأكبر منا لا يرتضي إلاّ سماع المديح والإطراء ويحنقه النقد الذي يوجهه المستشرق مهما يكن موضوعياً بل وإن الوساوس تخامره من كل نتاج استشراقي ما دام صادراً عن خلفية مؤلمة وحاضر صعب كما يقول أستاذنا الدكتور عبد العزيز الدوري[1].

وفي بحثنا هذا نحاول طرح منهج جديد لدراسة الاستشراق يقوم على رؤيته من الداخل لمحاولة إدراك كنه التفاعل بين المكونات الداخلية للمستشرق وهو هنا المستشرق البريطاني هاملتون أ.ر. كب[2] وبين البيئة الاستشراقية الانكليزية. والمادة التـــي يدرس من خلالها هذا التفاعل هي سيرة وشخصية البطل المسلم صلاح الدين الأيوبي محرر القدس مستهدفين في ذلك رصد قيمة وطبيعة الإضافة التـــي قدمتها كتاباته لدراسة هذا الموضوع، وكذلك دراسة مدى سموه فوق أفكار بيئته ودرجة اقترابه من الرؤية الإسلامية وأخيراً طبيعة موقف البيئة الاستشراقية من طروحاته.

من الثابت أن صلاح الدين هو واحدٌ من أشهر الشخصيات الشرقية التـــي عرفها الغرب، ومبعث شهرته ولاشك نجاحه في دحر الصليبيين في حطين واسترجاعه القدس من بين أيديهم ودحره الحملة الصليبية الثالثة وإفشالها فضلاً عن المثال الأخلاقي النادر الذي عكسته معاملته السمحة والنبيلة لأعدائه. وقد اتسمت صورته في الأدبيات الأوروبية في العصور الوسطى بصورة الفارس الشهم الشجاع، الا أن الانكليز هم وحدهم الذين نظروا إليه بعين العداء لأنهم أبو أن يقروا لذلك السلطان الذي دحر بطلهم ريتشارد قلب الأسد وأعاده إلى بلادهِ يجر أذيال عجزه عن (استرجاع) القدس. نقول إنهم أبوا أن يقروا له بالصفات الأخلاقية الحقيقية وكان

[1] رسالة شخصية للباحث من الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري بتاريخ 1996/6/15.

[2] هاملتون الكسندر روسكين كب (1971 - 1895)؛ عميد الاستعراب البريطاني في القرن العشرين، أستاذ العربية في لندن وأكسفورد وهارفارد، عضو مؤسس لمجمع اللغة العربية في القاهرة، له مؤلفات عديدة منها المجتمع الاسلامي والغرب، الاتجاهات الحديثة في الاسلام، انظر عنه ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، المستشرق هاملتون كب (رسالة دكتوراه غير منشوره، كلية الاداب، جامعة الموصل).

لديهم مقاتلاً جباناً غادراً يفر من مواجهة ريتشارد ويلجأ إلى الخيانة والخداع[3]. وبقيت هذه الصورة مهيمنة على الفهم الإنكليزي حتـــى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عندما تصدى مؤرخ ومن ثم روائي لهذا الموضوع وأحدثا تحولاً في النظر إليه. وهذان المؤرخ ادوارد كيبون والروائي السير والتر سكوت. أما كيبون فقد أكد على المزايا الأخلاقية التي تمتع بها صلاح الدين في حين أبرز سكوت صلاح الدين بوصفه ندا لخصمه ريتشارد في الشجاعة والفروسية.

ثم طرأ تحول كبير على الصورة الانكليزية لصلاح الدين عندما توقف المستشرق البريطاني ستانلي لين بول ليكتب أول سيرة بالإنكليزية عن صلاح الدين، وذلك في عام 1898. ورجع فيها لين بول إلى المصادر ألاولية العربية فأكد موثوقية السيرة التـــي كتبها ابن شداد، وتحامل المؤرخ ابن الأثير عند تناوله شخصية صلاح الدين لكنه مع ذلك أقرَّ بأهمية رواياته واستخدمها باستفاظة. من جانب آخر أهمل لين بول الاعتماد على كتابات عماد الدين الأصفهاني حيث عدها أعمالاً أدبية للصنعة اللفظية أثرها البين على الحقيقة التاريخية[4] أما سيرة صلاح الدين لديه فهي سيرة الفارس المحارب للصليبيين اذ احتلت سنوات جهاده الشامل للصليبيين (أي السنوات الخمس الأخيرة من حياته) الحيز الأكبر من كتاب لين بول[5]. في حين لم يخرج كثيراً عن الإطار الذي رسمه كيبون وسكوت لشخصية صلاح الدين فما زالت صورته (أي صورة صلاح الدين) هي صورة المقاتل الفارس الشهم (الرومنتيكية) لكن

---

(3) ناصر عبد الرزاق الملا جاسم "صورة صلاح الدين في القصص الرومانسية الفرنسية والإنكليزية (مجلة مركز الوثائق للدراسات الإنسانية، جامعة قطر 1996.

(4) جزيل الجومرد وناصر الملا جاسم، سيرة صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الناطقة بالإنكليزية، بحث مقبول للنشر في مجلة مؤته.

(5) Lane Poole, Saladin and the fall of the Kingdon of Jerusalem (London 1898).

لين بول أضاف إليها بعداً جديداً هو التأكيد على تدين صلاح الين وتقواه وهنا يظهر تأثير ابن شداد واضحاً[6].

وبقيت رؤية لين بول مهيمنة على الاستشراق الإنكليزي لنحو نصف قرن من الزمن حتـــى قدر لمستشرق بريطاني بارز هو هاملتون كب أن يتصدى لدراسة هذا الموضوع في سلسلة من البحوث والدراسات هي حسب سنوات نشرها:

1. المصادر العربية عن حياة صلاح الدين (1950).
2. جيوش صلاح الدين (1950).
3. مآتي صلاح الدين (1950).
4. البرق الشامي مصدر عن حياة صلاح الدين (1950).
5. ظهور صلاح الدين (1950).
6. حياة صلاح الدين من خلال أعمال عماد وبهاء الدين (1973).

وإذا كان كب قد اختتم نشاطاته البحثية عن صلاح الدين بنشر السيرة التـــي كتبها عنه فإن ثمة حقائق تؤكد أن هذه السيرة هي أقدم أعماله وأنه انطلق منها لينجز هذه الاعمال[7]. وهذه الحقائق هي:

1. شهادة طالبه الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي الذي أفاد بأن كب قد أنجز كتاباً عن صلاح الدين في الأربعينيات وبتكليف من عميد كلية سانت جونز. وقد جاء ثمرة جهد وتركيز متواصلين استغرقا نحو ستة أشهر وبمعدل ثماني ساعات يومياً، اعتاد كب قضاءها في

---

(6) Ibid, p.

(7) A.Hourani, Europe and the Mddle East, (Oxford: 1980) p.106، كان البرت حوراني من اصحاب الرأي بأن السيرة هي آخر مؤلفات كب.

المكتبة البودلية في اوكسفورد، لكن اللجنة العليا في هيئة الدراسات الشرقية قد اعترضت على الكتاب لكونه مثقلاً بالهوامش ولم توصِ بطبعه حينذاك[8]

2. إشارة سيدني بينتر مؤلف القسم المخصص للحملة الصليبية الثالثة في الكتاب الضخم الذي حررته جامعة بنسلفانيا ابتداء من عام 1955 إلى وجود مخطوطة تتناول سيرة صلاح الدين بمجملها بقلم كب أفاد منها في بحثه[9].

3. إن دراسات كب عن مصادر صلاح الدين ومآثره وجيشه التـــي نشرها في مقتبل الخمسينيات كشفت عن دراية عميقة ومفصلة بجوانب سيرة صلاح الدين، ومن المنطقي أن يلجأ كب، كما هو حالّه دائما إلى تكوين رؤية عامة ثم يغور في التفصيلات.

4. نص (السيرة) نفسه يؤكد هذه الحقيقة، فإذا أهملنا الصفحات الأولى نرى كب يتجنب استخدام أي مصدر أولي ثانوي نشر بعد الأربعينيات، وكانت الترجمة الإنكليزية لكتاب وليم الصوري التـــي نشرت عام 1934 أحدثها [10].

كانت لدى كب وهو يشرع بإعداد كتابه عن صلاح الدين بعض المنطلقات والإرهاصات المسبقة. وإذا بحثنا عن جذور صلته بهذا البطل المسلم سنراها ترجع إلى مرحلة مبكرة جداً من حياته وهي مرحلة الدراسة في المدرسة الملكية العليا في ادنبرة. حيث خلقت رواية الطلسم للروائي الأسكتلندي الشهير والترسكوت أثراً عميقا في نفسه وهو يدرسها كأحد المقررات الدراسية[11]. وهنا لابد من التنبيه إلى المكانة الرفيعة التـــي يحتلها سكوت في نفوس طلبة هذه المدرسة بوصفه أشهر خريجيها[12]. وقد رافق إعجاب كب بهذه الرواية أمداً طويلاً، إذ يذكر حوراني أن كب قد اعتاد بعد نصف قرن من الزمن على توصية طلبته بقراءتها بوصفها عملاً

---

(8) مقابلة مع الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي بتاريخ 15/ تشرين الثاني/1996.

(9) S.Painter:" the Crusade of Richard I and Philip Augustus in K.Setton (ed) A History of the Crusades, (Madison, 1969) vol Iip. 590

(10) The Life of Saladin from the Works of Imad and Baha adin (Oxford, 1973) P.15

(11) Hourani, p.106

(12) Hourani, p.106

رائعاً يمكنهم من فهم الكثير عن التاريخ الاسلامي[13]. وهكذا ترسخت في ذهن كب وهو طفل صورة صلاح الدين بوصفه نداً لخصمه الملك الانكليزي ريتشارد قلب الأسد سواء في الفروسية أو في الهيبة الملكية[14] مما يحدد لنا ولا شك خيطاً مهماً من خيوط صلاح الدين لدى كب[15]. ثم تعمق هذا الاتجاه عندما قرأ سيرة المستشرق ستانلي لين بول. وقد تركت هذه السيرة أثراً كبيراً في نفس كب إلى الحد الذي دفع بعض المستشرقين للمغالاة بالقول بأنه قد وقع تحت تأثيرها[16] كما أسهمت دراسة سابقة له عن الماوردي وإن بصورة غير مباشرة في إعطائه لعلاقة صلاح الدين بالخلافة العباسية إطاراً جديداً كما منح مفهومه (أي كب) الإسلام لشخصية هذا البطل وإنجازاته أبعاداً جديدة كل الجدة كما سنرى. ولتقييم معطيات كب عن صلاح الدين لابد من تقسيمها إلى ثلاثة حقول هي:

أ – كب ومصادر صلاح الدين

ب – كب وسيرة صلاح الدين

ج – كب وشخصية صلاح الدين

آ – مصادر سيرة صلاح الدين

كان كب قد عرج عندما كتب كتابه (الأدب العربي) 1926 على موضوع مصادر دراسة سيرة صلاح الدين ويبتدى للقارئ تأثره التام بأحكام ليون التـــي ضمنها في كتابه المشار إليه آنفاً. ويمكن تحديد هذه المواقف بـــ

---

(13) Ibid, p.106

(14) عن التحول الذي أحدثه سكوت في النظرة الإنكليزية لصلاح الدين يراجع رسالة الدكتور ضياء الجبوري المهمة: Dhia A.H.AL -Juboori, The Medieval Idea of the Saracens As Illustrated in English Literature(Ph.D. thesis University of Leicester: 1972)

(15) P.M.Holt, "Saladin and His Admirers" BSOAS, 1983, vol - XLVI,p.237، ناصر عبد الرزاق الملا جاسم، صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الإنكليزية والأميركية (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل كلية الآداب: 1922) ص م.

(16) رأى أغلب نقاد كب أنه قد سار على خطى لين بول في تقييمه الإيجابي لصلاح الدين ينظر على سبيل المثال: Holt "Saladin".p.237 Nierman, Review of Ehrenkreutz's Saladin AHR, 1974 Vol.79p.502 Scanlon G. "Revien of Ehrenkreutz's Saladin", JSS, 1975, Vol – XX,p. 276

آ – وضع (الكامل في التاريخ) لابن الاثير في مكانة متميزة بين مصادر الموضوع على الرغم من الإقرار الفعلي بتحامله على صلاح الدين.

ب – إلحاق (النوادر) لابن شداد بابن الاثير وجعلهما المصدرين الأساسيين عن حياة صلاح الدين.

ج – تجاهل كتابات عماد الدين الكاتب الأصفهاني بوصفها أعمالاً أدبية ترك أسلوب مؤلفها المغرق بالصيغة اللفظية أثراً سلبياً على قيمتها التاريخية[17].

لكن كب بدأ يعدل مواقفه تدريجيا من هذه المصادر، وجاءت دراسته المهمة عن العلاقة بين ابن القلانسي وابن الاثير المعنونة (ملاحظات على المواد العربية عن الحروب الصليبية) والتي نشرها عام 1935 لتغير قناعاته بموثوقية ابن الأثير وتقوده إلى ابتكار منهج جديد في دراسة المصادر العربية[18]. فقد لجأ وهو يسعى لتفحص مصادر دراسته عن صلاح الدين إلى تبني منهجه السابق في نقد مصادر الحروب الصليبية وتوصل إلى استنتاج فحواه ان ابن الأثير قد استقى أغلب مادته عن عماد الدين لكنه أجرى عليها تحويرات ذكية وخبيثة في الوقت نفسه حرفت نصوص عماد الدين عن معانيها الأصلية وأعطتها معاني مغايرة تماماً[19]. وحدد كب في (السيرة) مواضع هذه التحويرات ثم اعتاد جمعها وعرضها بصورة لافتة للنظر في بحثه "المصادر العربية عن حياة صلاح الدين" الذي نشره عام 1950 [20]. والذي يعد بحق واحداً من أهم إنجازاته الأصيلة، وخلاصة هذا البحث تتمثل في إنكاره للمكانة التـي تمتع بها ابن الأثير لدى لين بول بوصفه مصدراً أساساً من مصادر سيرة صلاح الدين. وقصر أهميته في تعبيره عن "العداء وروح التجزيء اللذين كان على صلاح الدين أن يكافح ضدهما في بناء

---

[17] S.Lane -poole, Saladin, p.VII

[18] F.Gabreli, "The Arabic Historiography of the Crusade" in B.Lewis (ed)

[19] The life,p.3

[20] نشر هذا البحث في مجلة (المرآة) التابعة لأكاديمية الدراسات الوسيطة الأميركية عام 1950. وقد اعتمدنا نص هذا البحث والبحوث الأخرى كما وردت في الكتاب الذي حرره تلميذه يوسف ايبش ونشره عام 1974 وترجمته العربية التـي نشرت قبل ذلك بعام.

صرح قوته السياسية والعسكرية وآثارهما المعنوية التـــي استمرت في إعاقة عملياته فترة الحملة الصليبية الثالثة"[21].

ولعل الذي مكن كب من التوصل إلى استنتاجه السابق هو توظيفه الفطن لمصدر جديد بالغ الأهمية لم يفطن إليه لين بول ألا وهو (كتاب البرق الشامي) لعماد الدين الأصفهاني وتحديداً الجزئين المتبقيين منه والمحفوظين في المكتبة البودلية بأوكسفورد[22]. ومن الواضح أن كب كان جاهلاً بأمرهما عندما كتب (الأدب العربي) عام 1926.

وأسهم هذا المصدر إلى جانب بقية نصوص عماد الدين عن صلاح الدين والمتوزعة بين كتابه (الفتح القسي) والمقتطفات التـــي ضمنها كتاب الروضتين للمؤرخ الدمشقي أبو شامة عن (البرق) في بلورة الخلاصة الثانية التـــي نقض فيها تصور لين بول السابق عن عماد الدين الأصفهاني. وفيها يؤكد أن كتابات الأصفهاني يجب أن ترتقي إلى المحل الأول بين مصادر سيرة صلاح الدين، أما أسلوبه المزوق فهو أسلوب أبناء طبقته من كتاب الدواوين وليس له من تأثير على الحقيقة التاريخية أو على دقة عباراته[23]، وأن روايته للأحداث تأتي على الدوام وافية وحافلة بالصدق والنزاهة رغم اهتمام عماد الدين البالغ بإبراز براعته اللغوية[24]. فضلاً عن ذلك يؤكد كب إيمانه بموثوقيته وجدارته، ويستدل على صدقه بمقارنة رواياته بروايات المصادر الاولية الصليبية مثل وليم الصوري وأرنول أو بالمصادر العربية مثل ابن شداد[25]. ويدفعه تحمسه لهذا المصدر لتخصيص دراسة لاحقة مفصلة عنه غار فيها في أعماق البناء

---

(21) هاملتون جب، صلاح الدين الايوبي (بيروت 1973)، ص96.

(22) كتاب (البرق الشامي) احد المصادر الاساسية عن حياة صلاح الدين كتبه الكاتب عماد الدين الاصفهاني في سبعة أجزاء لكنه فقد ولم يُعثر سوى على الجزئين الثالث والخامس وقد تم تحقيق هذين الجزئين ونشرا في الاردن عن مؤسسة عبد الحميد شومان باشراف الاستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري.

(23) صلاح الدين، ص 74.

(24) نفسه. 183.

(25) نفسه، ص 183. The Life,p.3.

اللغوي لجزئي (البرق) المتبقيين فضلاً عن تلخيصه لمحتوياته وتصديه لترجمة مقتطفات عنه، وعاد فيها لتكرار آرائه السابقة بشأن موثوقية كتابات عماد الدين وصدق مؤلفها ونزاهته وإخلاصه للحقيقة التاريخية[26]. لعل أهم خصائص هذا البحث هو إبراز قدرة كب على التوغل داخل عالم عماد الدين اللغوي الشائك الذي أثار سخط المؤرخين، حتى المسلمين منهم أمثال أبي شامة[27]. وقد نجح كب في تحليل البنية الموضوعية والأسلوبية للكتاب ففرز أنماطاً متنوعة من البحث التاريخي ومن الإنشاء، وأثبت بما لايدع مجالاً للشك أن كتابات عماد الدين تكتنز في داخلها منجماً هائلاً من المعلومات لم يولها أسلافه من المستشرقين أو من المختصين بتاريخ الحروب الصليبية عنايتهم.

والخطأ الوحيد الذي يقع به هو عزوه فقدان أجزاء البرق الأخرى لظهور كتاب أبي شامة الذي أصبح مختصراً يغني عن الأصل فقّل تداول الأصل ثم فقد[28]. واذا كان تفسير كب صحيحاً جزئياً في ان فقدان البرق مبعثه ظهور مختصر له فهذا المختصر هو تلخيص البنداري للكتاب الذي حمل عنوان (سنا البرق الشامي) والذي لم يعلم كب بوجوده، إذ اكتشف في عهد قريب[29]. ومن جانب آخر فان اكتشاف هذا المصدر الجديد لم يؤد إلى انتقاص نتائج كب السابقة وإنما زادها وثوقاً.

ولم يقف كب عند تعديل رؤى لين بول فحسب بل عمد إلى توظيف مصادر جديدة لم يولها سلفه عنايته على الرغم من معرفته بها. وأهم هذه المصادر الرسائل التي أنشأها نيابةً عن صلاح الدين وزيره وصديقه الحميم القاضي الفاضل. ويراها كب من بعض الوجوه أكبر

---

(26) نشر هذا البحث عام 1952 عن مجلة جمعية المستشرقين الالمان بعنوان "البرق الشامي: تاريخ صلاح الدين للكاتب عماد الدين الاصفهاني.

(27) ابو شامة، كتاب الروضتين، ص 10.

(28) صلاح الدين، ص 73.

(29) نشر رمضان ششن قسماً من هذا المصدر ثم اعادت تحقيقه ونشره فتحية النبراوي عام 1979، قوام الدولة ابو الفتح علي، البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي (القاهرة، مكتبة الخانجي: 1979).

مصادر صلاح الدين قيمة[30]. ومع تنبيهه إلى ضرورة الحذر في التعامل مع هذا المصدر فهو يؤمن بأن هذه الرسائل "تعكس شيئاً، على الأقل، من أهداف صلاح الدين ومثله الحقيقية"[31] ونجد على امتداد معالجته للسيرة تأثيرات رسائل الفاضل عميقة في فهم كب لشخصية صلاح الدين ولمواقفه من خصومه المسلمين[32] أو من الخلافة العباسية[33]. بل إنه يتبنى في كثير من الأحيان وجهات النظر أو الحجج التـــي يقدمها صلاح الدين[34]. ويلتحق بهذه المجموعة مصدر خامس أسقطه لين بول من اعتباره هو المؤرخ ابن أبي طي الحموي الذي فقدت جميع مؤلفاته، ولم يتبق عنه سوى مقتطفات لدى المؤرخين كأبي شامة وابن الفرات والمقريزي. وينتبه كب إلى أهمية هذا المصدر، ربما تحت تأثير دراسة رائدة لكلود كاهن عنه نشرها عام 1935 [35]، واستوقفه غنى رواياته بالتفاصيل التـــي تفتقدها المصادر الأخرى[36] لكنه ينتبه كذلك، وهنا تحت تأثير أبي شامة ولاشك[37]، إلى دور الدوافع الشخصية في صياغة روايات هذا المؤرخ. وخاصة في تحامله على نور الدين زنكي وفي إلقائه ظلال قاتمة على علاقته بنائبه في مصر صلاح الدين الايوبي[38].

ويصل كب إلى خلاصة نهائية تقوم على تقسيم مصادره إلى مجموعتين الأولى تضم بهاء الدين بن شداد وعماد الدين الأصفهاني والقاضي الفاضل ويراها مصادر جديرة بالثقة بفعل صلتها الوثيقة بصلاح الدين وقدرتها على تسجيل الحقائق التاريخية بدقة. أما المجموعة الثانية

---

(30) صلاح الدين، ص 183.

(31) نفسه، ص 183.

(32) نفسه، ص 135، 137، 149.

(33) نفسه، ص 139.

(34) وخاصة في تفسيره لدوافع صلاح الدين في الزحف إلى بلاد الشام في محاربته زنكي الموصل، نفسه، ص 123.

(35) "Une Chronique Chiite au Temps des Croisades" C.R. de Acad Inscrptionst Bell letters 1935.

(36) صلاح الدين ص 139.

(37) ابو شامة، الروضتين، ج2، ص 173.

(38) نفسه، ص 174.

فتضم ابن الاثير وابن أبي طي. ويرى كب أن للدوافع الشخصية دورها في صياغة رواياتهما مما يثير الشك حيال صدقهما أو موثوقيتهما[39].

وهكذا تبنى كب في سيرة صلاح الدين التـــي كتبها خط المصادر الأولى منها ومعلقا كلما دعت الضرورة إلى تباين هذا الخط مع ما قدمته مصادر المجموعة الثانية وغالباً ما تحتل تعليقاته حيزاً كبيراً من هوامش كتابه التـــي جاءت مكثفة وغنية.

ب – كب وسيرة صلاح الدين

يؤكد كب في السيرة التـــي كتبها عن صلاح الدين، من جديد، أساسيات أسلوبه اللغوي وطريقة تناوله موضوعاته. فهو يلجأ إلى عاداته الثابتة في التكثيف والإيجاز وتقديم الخلاصات وعدم الإغراق في التفاصيل. وكذلك في حشو هوامشه بتعليقات متنوعة ومستفيضة تفوق في أحيان كثيرة المتن وتنصرف بالدرجة الأولى إلى تحليل العلاقة بين روايات المصادر الأولية. ولو قارنا بين عمل كب هذا وعمله الأول (أي رسالته للماجستير المعنونة الفتوحات العربية في آسيا الوسطى) لتبدى لنا محافظة كب على بعض السمات وتطويره لبعضها الآخر. فعلى مستوى الأسلوب نراه يظهر قدرة أعظم على تكثيف العبارات وتقديم خلاصات للنصوص منه في العمل الأول. أما استقصاؤه للعلاقات بين النصوص والروايات ودأبه على المقارنة بينها فيكاد يكون أبرز نواحي إنجازه التـــي تتضاءل إلى جانبها معالجته الأولى فتظهر بدائية إلى حد كبير. وخلافا لدراسته الأولى ولدراسة سلفه لين بول يقدم لنا كب عرضاً متسلسلاً للسيرة دون أن يلجأ إلى تقسيم كتابه إلى فصول أو عناوين جانبية فيبدأ سيرته مع ولادة صلاح الدين في تكريت ونشأته في بعلبك والتحاقه بنور الدين ومن ثم مشاركته عمه في الحملات على مصر، ثم توليه الوزارة فيها للخليفة الفاطمي العاضد والنيابة عن نور الدين. ويمضي كب في روايته حتـــى وفاة صلاح الدين واصفاً لحظاته الأخيرة بطريقة مؤثرة للغاية نقلها عن عبد اللطيف البغدادي في كتابه (المشاهدة). ودراسة كب هذه دراسة دقيقة متوازنة تسجل دون

---

[39] صلاح الدين، ص 70– 72.

مواربــة كفاءة كب بوصفه مؤرخاً وتنفي رأي تلميذه بولك الذي أقصاه عن صفوف المؤرخين[40]

ومن جانب آخر استطاع كب بناء مفهومه الخاص لسيرة صلاح الدين، فقد تحرر، كما يقول مراجع كتابه الأستاذ ج.م. روجرز أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية في القاهرة من النظرة الغربية التقليدية والمبسطة التـي نظرت إلى صلاح الدين من زاوية جهاده للصليبيين وهي النظرة التـي تبناها لين بول عندما أفرد نحو نصف كتابه للحديث عن السنوات الخمس الأخيرة من سيرة صلاح الدين أي سنوات جهاده الشامل[41]. ونجد أن كب لم ينسق وراء هذا الاتجاه حيث يقدم سيرة متوازية في حجمها وتقسيماتها إذ منح مرحلة بناء صلاح الدين لقوّته بين عامي 570هـ/ 1174 و583هـ/1187 مكانة كبيرة في كتابه، لكنه لم يبخس مرحلة الجهاد حقها من الاهتمام كذلك.

ج – كب وشخصية صلاح الدين

قدم كب خلال استعراضه لسيرة صلاح الدين رؤية فكرية متماسكة لشخصية صلاح الدين، استبقى بعضها عن لين بول ونجح في استكمال أطرافها الأخرى انطلاقاً من تحليلاته للمصادر وفهمه الشمولي للتاريخ الإسلامي. وهي رؤية تخطى فيها بمراحل كبيرة الاستشراق الغربي في فهمه الشخصية الإسلامية ككل وشخصية صلاح الدين على وجه التحديد. ويمكن تتبع إرهاصات هذه الرؤية في مراجعته لكتاب كروسيه التـي ألمحنا اليها سابقاً وفيها إجمال لما سيفصله لاحقاً في معالجته للسيرة وفي بحثه البالغ الأهمية مآتي صلاح الدين الذي نشر عام 1952.

وتقوم رؤيته في مراجعته لكتاب كروسيه، كما ألمحنا، على التمييز بين دوري نور الدين وصلاح الدين الجهاديين فهو مع إقراره بالصفات الخلقية الرفيعة للأول بدا له أولاً وآخراً قائداً

---

(40) W.Polk "Sir Hamilton Gibb Between History and Orientalism I J M E S, 197 Vol. p

(41) J. M. Rogers, "Review of Gibb's Life of Saladin" HER, 1935, Vol.7p.248

عسكرياً تركياً ولد لحكم وهو امتداد لحكم والده، ولكونه واعياً بالثورة المعنوية المتصاعدة فقد سعى لتوظيف هذه الثورة في إقامة وحدة معنوية إلى جانب الوحدة السياسية التـــي هو على رأسها[42]، أما صلاح الدين، فرجل ذو تكوين مختلف فقد كان أصلاً نتاج هذه الثورة المعنوية وأنه عالج المهمة التـــي ألقيت على كاهله، وهي التصدي للصليبيين وتحرير الأماكن المقدسة بروح المتصوف والرجل الملهم بمثال على أنه لم ينجح في اجتياز هذا الامتحان العسير لو لم يكن متسلحاً بهذه الروح[43].

وقد عمق كب هذه الرؤية وأعطاها أبعاداً أكثر وضوحاً في بحثه "مآتي" كما أضاف إليها عناصر جديدة استمدها من وحي دراسته لسيرة صلاح الدين وسار فيها على خط التعاطف الذي عهدناه لديه إلى آخر الشوط[44]، فكان بحثه هذا إنجازاً يندر أن يصدر عن كاتب غربي بحق شخصية إسلامية وفيه يسعى للبحث في دواخل شخصية صلاح الدين وحقيقة دوافعه من خلال الإجابة عن تساؤل يطرحه هو هل ثمة خصائص متفردة تميز شخصية صلاح الدين عن حكام عصره أم هو أحد أولئك القادة الذين وظفوا الشعارات والعواطف الدينية لتحقيق طموحاتهم وشهواتهم الشخصية؟[45]. ويمضي كب للإجابة عن هذا السؤال مستعيناً بمعطيات لين بول وبرؤيته المشار إليها سابقاً وبحصيلة تراكم فهمه لدور الإسلام في تاريخ ومجتمعات المنطقة وأخيرا ببحثه المعمق في سيرة صلاح الدين ومصادرها. وخلاصة بحثه القول بأن دور صلاح الدين السياسي الذي كانت تعيشه بلاد الشام والجزيرة والعراق في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي فالرجل لم يكن محارباً أو حاكماً سواء من حيث الميل أو التدريب[46]. أي انه وهو الحاكم الذي استطاع بسط سلطانه على رقعة واسعة من العالم الإسلامي ونجح في دحر الصليبين وتحرير الأماكن المقدسة لم يكن مخططاً عسكرياً بارعاً أو

---

(42) Gibb, "Review of Grousset's Histoirede Croisades" BSOAS, 1935. Vol. 7p. 248-9

(43) Ibid, p.249

(44) Cl. Cahen "Revue de Setton's A History of the Crusades", Oriens, 1956, vol X, p.176

(45) صلاح الدين، ص 179 ــ 180.

(46) نفسه، ص 189.

إدارياً جيداً[47]، لكنه كان في المقابل رجلاً ذا مزايا أخلاقية إسلامية حقيقية ألهمته لتحقيق هدف سام وألهمت معه أتباعه فنجح، كما يرى كب، في انتشال الإسلام من وهدة الانحطاط الأخلاقي السياسي حين نادى بمثال أخلاقي أعلى. وبما أنه طبق هذا المثل على حياته الخاصة وأعماله فقد خلق حوله محفِّزاً للوحدة ناجعا وان لم يكتمل ــ فـــي مواجهته التحدي غير المنتظر الذي ساقته الاقدار في طريقه[48].

لقد كان هدف صلاح الدين الأسمى هو "إعادة الكيان السياسي الإسلامي إلى سابق عهده وإحياء هذا الكيان في ظل امبراطورية واحدة موحدة، ليس تحت حكمه هو وإنما بعودة الحكم إلى كنف الشرعية تحت إشراف الخلافة العباسية واعتـــبر نفسه مجرد قائد لجيوش العباسييـــن"[49].

وتبقى هناك دراسة ثالثة لكب عن صلاح الدين جديرة بالاهتمام هي دراسته عن "جيوش صلاح الدين"[50]. وهي متفرعة كالدراسات السابقة عن بحثة في السيرة. ويقدم كب في هذه الدراسة تقنية بحث تختلف تماماً عن الدراسات السابقة، وتقترب في منهجها من كتابه المهم (المجتمع الإسلامي والغرب) فهي دراسة حقائقية هدفها دراسة البناء العسكري لدولة صلاح الدين، جاءت بأربعة أقسام خصصت الأقسام الثلاثة الأولى لدراسة جيوش صلاح الدين بينما ترك القسم الرابع للحديث عن الأعتده. وقد استند كب بالدرجة الأساس إلى متجددات (يوميات)

---

(47) نفسه، ص 188 ــ 189.

(48) نفسه، ص 201.

(49) نفسه، ص 2 ــ 193.

(50) نشرت هذه الدراسة في مجلة كراريس التاريخ العالمي الفرنسية عام 1951 وقد نشرت كسابقتها ضمن كتاب بولك وشو (دراسات في حضارة الإسلام) وقد نقلت إلى العربية مرتين الأولى ضمن ترجمة هذا الكتاب على ايدي عباس وآخرين والثانية ضمن مجموعة الدراسات التـــي حررها يوسف إيبش في كتاب حمل عنوان (صلاح الدين).

القاضي الفاضل التي حفظها لنا المقريزي في كتابيه (السلوك) و(الخطط)[51]. وإذا جعلنا بحث كب عن المصادر العربية لحياة صلاح الدين امتداداً لبحثه (ملاحظات عن المواد العربية عن الحملات الصليبية المبكرة) فإن بحثه هذا هو امتداد إلى حد كبير للقسم الذي تناول فيه كب الجيوش الإسلامية في مقدمته المهمة لكتاب ابن القلانسي. وقد أشاد الباحثون بهذه الدراسة فيرى ستيفن همفريز (المختص بالتاريخ الأيوبي) أنها قدمت حلولاً مرضية لقسم كبير من المشكلات التـــي تثيرها النصوص التاريخية[52]. وقد أثارت رؤية كب عن مصادره وسيرته وشخصية صلاح الدين ردود فعل متباينة بين مادح وقادح[53]. وكان أقسى ناقد لهذه الرؤية المستشرق اليهودي الأمريكي اندرو اهرنكروتز، الذي قدم في الكتاب الذي نشره عام 1973 عن صلاح الدين رؤية انشقاقية تماماً عن الموروث البريطاني عن هذا البطل الذي أسهم. سكوت ولين بول وكب في بنائه وترصينه. ويمكننا أن نستعرض جانباً من نقده لكب وفق التقسيمات التـــي عرضنا فيها لآرائه. فعلى قدر تعلق الأمر بمصادر صلاح الدين ناقض اهرتكروتز تماماً طروحات كب وحاول أن يقدم رؤية جديدة لمصادره مفادها أن قرب عماد وابن شداد والقاضي الفاضل من صلاح الدين الذي كان برأي كب أساس موثقيتهم، هو نفسه منطلق هجومه عليهم فقد عدهم أناساً متملقين انتهازيين بل وحتى مخادعين زوروا التاريخ تمجيداً لصلاح الدين[54] مفضلاً عليهم ابن الاثير ومتجاهلاً تحليل كب الدقيق الذي برهن فيه على عدم موثوقيته وقله أمانته فيما يتعلق بحياة صلاح الدين ــ أما عرضه للسيرة فيخالفه فيه عندما يولي المرحلة المصرية من حياة صلاح الدين عناية شديدة فيخصها بنحو نصف كتابه مع أنها لاتعطي إلا خمس سنوات من حياته، كان فيها وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد ونائباً

---

(51) عن يوميات القاضي أو متجدداته، ينظر: M. H. Ahmad "Some Notes on Arabic Histriography During the Zengid and Ayy bid Periods" in B.Lewis Historians of the Middle East (London SOAS: 1962) pp79-97

(52) S.Humphryes, Review of Gibbs Saladin (ed) by J.Ibish JNES, 1977, Vol. 36p.320

(53) لعل أول ناقد لكب في رؤيته هذه هو كلود كاهن الذي رأى بأن كب قد بالغ في تصوير صلاح الدين محوراً للجهاد مقارنة بعماد الدين زنكي وابنه نور الدين Cl.Cahen, "Revue" p.176

(54) G.Scanlon, p.277

لنور الدين وتجاهل في المقابل إعطاء مرحلة الجهاد الشامل ما تستحقه من اهتمام، اذ جاءت روايته لها ضعيفة ومهزوزة فضلا عن إسقاطه لبعض عناصرها الأساسية وتحريفه لبعضها الآخر[55].

والمقولة الأساسية التـي عالج في ضوئها سيرة صلاح الدين تتمثل في عد حكمه كارثياً على مصر، فقد كان، كما زعم، السبب الرئيسي لانهيار اقتصادها وذلك باستنزافه مواردها في محاربته أعدائه من مسلمين وصليبيين[56]. زد على ذلك أن استعانته بالموارد المصرية في الجهاد قد لفتت أنظار الصليبيين إليها فأصبحت هدف حملاتهم التالية[57]. وتأسيساً على ما تقدم يأتي تصويره لشخصية صلاح الدين مناقضاً تماماً لطروحات كب وحسبنا أن نقتطف عنه العبارة الآتية لتتجلى هذه الحقيقة:

"يجب أن نعزوا أغلب إنجازات صلاح الدين التاريخية البارزة إلى خبرته العسكرية والإدارية، وإلى عقابه الذي لا يرحم وإعدامه خصومه السياسيين والمنشقين على حكمه. وإلى نزعته القتالية وانتهازيته المحسوبة وإلى استعداده لاستغلال المثل الدينية لتحقيق مطامعه السياسية"[58].

وخلق موقف إهرنكروتز هذا صدعاً في الرؤية الاستشراقية (الناطقة بالإنكليزية في أقل تقدير) لشخصيته وإنجازات صلاح الدين ونجم عنه جدل ومناقشات مستفيضة في صفوف المختصين بالدراسات العربية، ويمكننا تلمس ذلك في المراجعات الضافية للكتابين التـي غطت أغلب الدوريات الاستشراقية والتاريخية، والتي امتد بعضها فتحول إلى دراسات مستفيضة[59] وما استطعنا حصره منها هو مراجعات بيترهولت وستيفن رنسيمان واير

---

(55) S.Runeiman "Review of Ehrenkreutz's Saladin", JRAS, 1973, p.68

(56) A.S.Ehrenkreutz, Saladin (Newyork, State University Press: 1972) p.234

(57) Ibid, p. 235

(58) Ibid,p.238

(59) كتب د. س ريتشارد دراسة مفصلة قارن فيها بين طروحات كب واهونكروتز بشأن حياة صلاح الدين المبكرة هي: D.S. Richard, The Early History of Saladin 1973, vol. XVI p.140-157 أما هولت فقدم دراسة

ألابيدوس وجورج سكانلون وبوزوورث وشبولر وشارل بيللاود. س. ريتشاردزوس ـ خان وويلفرد مايدلنك. وباستثناء هولت لم يرجح المراجعون السابقون رؤية إهرنكروتز على ما قدمه كب[60] واذا كان مايدلنك (الذي هو الآن أستاذ العربية في اوكسفورد) وقد أيد بعض طروحات إهرنكروتز بشأن علاقة صلاح الدين بنور الدين ووصف اتجاه كب بالرومانتيكي[61] فإنه اسوة ببقية المراجعين قد وجه سهام النقد لمعطيات إهرنكروتز الأخرى.

وإذا توقفنا أمام موضوع المصادر لا نرى خلاف هولت من يقف إلى صف إهرنكروتز[62] بينما أكد سكانلون (أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة الاميركية في القاهرة) أن معالجته ليس أكثر من "اتجار بالنصوص"[63] وسجل ريتشارد. (من جامعة أوكسفورد) أن رؤية كب تستند إلى تفحص صارم للمصادر في حين لا يملك إهرنكروتز شيئاً من ذلك[64] وقد عبر بوزوورث (أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة مانجستر) عن حنقه لتجاهل إهرونكروز لحجج كب النافذة في نقده ـ لابن الاثير[65].

واذا انتقلنا إلى موضوع السيرة يقفز إلى المقدمة المؤرخ رنسيمان الذي انتقد فقر وهزالة معالجة إهرنكروتز لمرحلة الجهاد ضد الصليبيين ولتجاهله الحقائق الأساسية للصراع الإسلامي الصليبي التي كانت واضحة تماماً في ذهن كب[66]. ونقد نسميان بقسوة ادعاء

للطروحات الاستشراقية عن صلاح الدين في مقال حمل عنوان (صلاح الدين ومعجبوه) نشره في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية عام 1983.

(60) رأى هولت ان كتاب اهونكروتز يعبر عن الاتجاهات الجديدة في دراسة هذه الحقبة: P.M. Holt "Review of Ehrenkreutz's Saladin" BSOAS, 1973, vol 35,p.651

(61) W.Madelunge, Review of Gibbs Life of Saladin JNES, 1975, vol 33p.207

(62) Holt, "Saladin" p.237

(63) G,Scanlon, "Review" p.277

(64) Richards, "The Early" p141

(65) C.Bosworth "Review of Gibb's Life of Saladin" JSS, 1975, vol20 .p. 320

(66) S.Runciman, "Review" p.68

(67) Ibid, p.68

إهرنكوتز بضعف اهتمام صلاح الدين بأمر الجهاد بدليل عدم تصديه للصليبيين منذ قدومه إلى الشام عام 570هـ/1174 وانشغاله بمحاربة الأمراء المسلمين، فقد اكد رنسيمان أن طبيعة جيش صلاح الدين الإقطاعية فرضت عليه بذل جهودٍ مضنية لكي لا يستطيع مواجهة الجيش الصليبي الثابت. وأنه لم يتمكن من أن يزج في الميدان جيشاً يوازي الجيش الصليبي الإ بعملية بناء الجبهة الإسلامية الموحدة التـــي استلزمت منه أكثر من اثني عشر عاماً[67]. أما مايدلنك فقد نبه إلى أن صلاح الدين قد فضل طوال هذه السنوات ممارسة حرب استنزاف متواصلة أضعفت البناء الصليبي ومكنته في النهاية من الانقضاض عليه وتدميره[68]. ورفض شارل بيلا طروحات إهرنكروتز، وأكد بأن كتابه لم يقدم الدراسة المنتظرة عن صلاح الدين[69]. بينما كان خان اقسى نقاد هذا الكتاب، حيث عد رؤيته تشويهاً متعمداً للصورة التـــي قدمها كب. وفي معرض رده على تقول إهرنكروتز بشأن ضآلة إنجازات صلاح الدين، أكد أن صلاح الدين هو الذي أنقذ الشرق من الغزو الصليبي وزرع بتحريره القدس جواً من الثقة كان له أكبر الأثر في طرد الصليبيين التام من الشرق بعد ذلك[70]. وفي الموازنة الأخيرة بين رؤيتي كب وإهرنكروتز أعلن نسيمان[71] ولابيدوس[72] وسكانلون[73] وبوزوورث[74] وشبولر[75] وريتشاردز[76] وخان[77] رجحان رؤية كب وتفوقها.

---

(68) Madelunge, "Review", p.208
(69) Bellat, "Critique de Ehrenkreutz Saladin" Arabica 1973, Tome 20 p.320
(70) M.S.Khan," Review of Ehrenkreutz's Saladin" IQ, 1974, vol XVIII, p.58
(71) Runciman, "Review" p.69
(72) I Labidin, "Review of Ehrenkreutz's Saladin" JAOS, 1974, vol 88 p.241
(73) Scanlon, "Review" p.276
(74) Bosworth "Review" p.320
(75) B.Spuler, "Buchbesprechungen des Gibb's Life of Saladin" Der Islam 1974, Band 51,p.147
(76) Richards, "The Early," p.157
(77) Khan "Review" p.59